

الأوبئة وأثرها في التاريخ بين دروس الماضي وتحديات الحاضر ورهانات المستقبل

Epidemics and their impact on history Between the lessons of the past, the challenges of the present, and the bets of the future

د. أحمد الخاطب: مؤسسة دار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية العليا، جامعة القرويين، المغرب

Dr. Ahmed Al-Khatib: Dar Al-Hadith Al-Hasaniyah Institute for Higher Islamic Studies, Al-Qarawiyyin University, Morocco

DOI: <https://doi.org/10.56989/benkj.v3i1.9>

الملخص:

مع بداية سنة 2020، دخلت البشرية منعطفا خطيرا في تاريخها الراهن، تحت تأثير فيروس كورونا كوفيد 19، الذي اجتاح العالم بوتيرة سريعة ومرعبة انطلاقا من الصين، في اتجاه أوروبا، ومنها إلى باقي العالم؛ متحديا مختلف الحواجز الطبيعية والسياسية والدينية والتنمية والعرقية... واستمرت معاناة البشرية بشكل رهيب نتيجة لذلك، لفترة تقارب سنة ونصف، أصبحت خلالها كل دول العالم في الغرب والشرق، في الشمال والجنوب، تنن تحت وطأة الخوف والرعب مما يجري ويتفاعل داخلها وحول حدودها. وانقلب إيقاع الحياة عالميا على جميع المستويات. وبدا العالم وكأنه في حالة حرب كونية شاملة، لكنها ضد عدو غير مرئي، إنه: وباء كورونا كوفيد 19، وشكلت أزمة كورونا فرصة تاريخية لتجديد النظر في أثر الأوبئة في مسيرة التاريخ البشري، واستقصاء خبرات وتجارب البشرية في التعامل معها. كما شكلت فرصة مناسبة لإعادة طرح سؤال قيمة المعرفة التاريخية خاصة، والمعرفة الإنسانية والاجتماعية عامة، في بناء وتوجيه الحضارة الإنسانية عبر التاريخ. وهو ما يهدف البحث إلى الإسهام في تحقيقه، من خلال مقارنة تاريخية لأخطر الأزمات الوبائية في التاريخ البشري وآثارها عبر ثلاث نطاقات تاريخية، وهي: التاريخ العالمي، والتاريخ الإسلامي، ثم التاريخ القطري المغربي.

الكلمات المفتاحية: الأوبئة والجوائح، كورونا، كوفيد 19، التاريخ العالمي، التاريخ الإسلامي، التاريخ المغربي.

Abstract:

With the beginning of the year 2020, humanity entered a dangerous turning point in its current history, under the influence of the Corona virus (Covid 19), which invaded the world at a rapid and terrifying pace from China, towards Europe, and from there to the rest of the world; Defying various natural, political, religious, developmental and ethnic barriers... As a result, humanity continued to suffer terribly, for a period of nearly a year and a half, during which all the countries of the world in the West and East, in the North and the South, groaned under the weight of fear and terror from what was happening and interacting within and around its borders. The global rhythm of life has changed at all levels. The world seemed to be in a state of all-out global war, but it is against an invisible enemy: the

Corona Covid-19 epidemic, and the Corona crisis constituted a historic opportunity to revisit the impact of epidemics on the course of human history, and to investigate the experiences and experiences of humanity in dealing with them. It also constituted an appropriate opportunity to re-raise the question of the value of historical knowledge in particular, and human and social knowledge in general, in building and directing human civilization throughout history. This is what the research aims to contribute to achieving, through a historical approach to the most dangerous epidemic crises in human history and their effects across three historical domains: global history, Islamic history, and Moroccan-Qatari history.

Keywords: epidemics and pandemics, Corona, Covid 19, world history, Islamic history, Moroccan history.

المقدمة:

مع بداية سنة 2020، دخلت البشرية منعطفا خطيرا في تاريخها الراهن، تحت تأثير فيروس كورونا كوفيد 19 الذي اجتاح العالم بوتيرة سريعة ومرعبة انطلاقا من الصين، في اتجاه أوروبا، ومنها إلى باقي العالم؛ متحديا مختلف أشكال الحدود والحواجز السياسية والدينية والتنموية والعرقية. استمرت المعاناة لمدة تقارب سنتين، حيث أصبحت كل دول العالم في الغرب والشرق تنن تحت وطأة الصدمة والرعب مما يجري داخلها وحول حدودها. فتعطلت حركة النقل الدولي والداخلي، وأغلقت الحدود، وفرض حجر شامل في كثير من بلاد الدنيا. وأصبحت حركة الاقتصاد العالمي بشلل شبه مطلق، ومعها العلاقات الاجتماعية عبر العالم. هكذا، هيمن فيروس كورونا كوفيد 19 على الخطاب الإعلامي العالمي، وأصبحت منظمة الصحة العالمية المنظمة الدولية الأولى والأكثر حضورا في صناعة القرار الصحي على المستوى العالمي، وتعززت معها أصوات العلماء والأطباء ومسؤولو القطاعات والمؤسسات المعنية بالصحة على صعيد الدول والحكومات، محذرة من تفاقم الأزمة الصحية وتفشي مخاطر الفيروس وعجز البنيات الاستشفائية عن تلبية حاجيات المرضى والمصابين، داعية الجميع إلى اتخاذ كل ما يلزم من الإجراءات الاحترازية في غياب دواء معلوم للوباء. فتصدت المستشفيات وخاصة أقسام الإنعاش والتنفس الاصطناعي قائمة المؤسسات المعنية باهتمامات الناس ووسائل الإعلام... وفرضت شبكة من المصطلحات والمفاهيم ذاتها على الجميع، مثل: الجائحة،

والوباء، والكوفيد، و كورونا 19، والتباعد الجسدي والاجتماعي، والكمامات، والحجر الصحي...؛ فبدأ وكأن العالم في حالة حرب مع عدو غير مرئي: إنه وباء كورونا كوفيد 19.

من الصعوبة حسم القول في مقارنة أو مقاربات هذه الأزمة، خاصة وأن الحرب ضد هذا الفيروس لم تضع بعد أوزارها، طالما أنه لم يحسم علميا عن طريق منظمة الصحة العالمية في الأسباب الحقيقية والمباشرة لهذا الوباء، وبالتالي لم يعلن عن العلاج أو الدواء الحاسم للقضاء عليه. والمعركة الحقيقية اليوم والتي ما تزال الدول والمنظمات تتنافس فيها هي معركة البقاء في وجه الوباء وتجنب أسوأ الاحتمالات. وعلى الرغم من أن الميدان المباشر لمنازلة الوباء هو المختبرات العلمية والتقنية والطبية، نعتقد أن البشرية مطالبة اليوم بمقاربة هذه الأزمة وخوض هذه المعركة في إطار منظومة نسقية متكاملة العلوم والمعارف. ولذلك، نتساءل ما أهمية المعرفة التاريخية في مقارنة أزمة كورونا كوفيد 19؟ ما القيمة المضافة التي يمكن أن تقدمها المعرفة التاريخية للبشرية في هذه المعركة ومثيلاتها من المعارك؟ ماذا عن أهم الجوائح والأوبئة التي تعرضت لها البشرية عبر تاريخها الطويل؟ وكيف تعاملت معها؟ وماذا تختزن الذاكرة البشرية عبر التاريخ من تجارب وأساليب ومناهج وخبرات في معارك مشابهة مع الأوبئة وأزماتها؟ إلى أي مدى يمكن أن تفيد تلك التجارب التاريخية وما تحبل به من دروس وعبر، في معركة الحاضر ضد وباء كورونا كوفيد 19؟ وماذا يمكن أن تقدمه التجربة البشرية الحالية في مواجهة أزمة كوفيد 19 للبشرية من دروس للمستقبل؟ ما التحديات والرهانات التي تفرضها هذه المعركة على البشرية جمعاء، وعلى المغرب بصفة خاصة؟

الأوبئة في التاريخ العالمي: معطى بنيوي أم طارئ؟

لقد شكلت أزمة كورونا كوفيد 19 فرصة تاريخية لتجديد النظر في تاريخ البشرية ومتابعة أثر الأوبئة في مسيرة التاريخ. كما شكلت فرصة مناسبة لإعادة طرح سؤال قيمة المعرفة التاريخية خاصة، والمعرفة الإنسانية والاجتماعية عامة، في بناء الحضارة الإنسانية عبر التاريخ. وقبل أن نحاول رصد الوقائع الكبرى في تاريخ الأوبئة، لا بد من الإشارة إلى أن التعبير عن هذه الظاهرة في الكتابة التاريخية قد تم عبر شبكة من المصطلحات مثل: الجائحة، والوباء، والطاعون... وهي على العموم مسميات لأزمات صحية أو "جائحات أمراض كبيرة" حادة كانت تتعرض لها البشرية بين الفينة والأخرى، ناتجة عن مرض يصاب به عدد كبير من الناس جماعة، ولفترة طويلة الأمد نسبيا، ومتفشية جغرافيا، بحيث قد لا تنحصر في إقليم أو قطر، بل تكتسي أحيانا طابع العالمية، من خلال

انتشارها عبر مناطق واسعة لتشمل بلدانا عدة أو قارات. وتختلف نتائج وخيمة على الجنس البشري وحياته وعمرانه بصفة عامة¹.

في هذا السياق، يخبرنا التاريخ أن البشرية قد عرفت عبر مختلف الحقب والعصور الكثير من الجوائح والأوبئة المدمرة، التي عصفت بها، وتسببت لها في أزمات خطيرة على جميع المستويات، خاصة وأن بعضها قد اكتسى، فعلا، طابع العالمية². ولعل أول وباء يذكره التاريخ تفشى في البشرية كان خلال القرن الخامس قبل الميلاد، إبان الحرب البيلوبونيسية بين أثينا وأسبرطة (431-404 ق.م). فكان الوباء بمثابة العدو الأول لأثينا في هذه الحرب، حيث قتل أكثر مما قتلت الحرب، حوالي خمسين ألف شخص من سكانها. وكان هو العدو الفعلي الذي عرّض أثينا للهزيمة في تلك الحروب³. ثم تعرضت الإمبراطورية الرومانية فيما بعد، لطاعون شديد الخطورة خلال النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي، عرف بالطاعون "الأنطوني" The Antonine Plague، نسبة إلى الأسرة الأنطونية الحاكمة في الإمبراطورية الرومانية آنذاك⁴. ويرجح بعض العلماء أن السبب العلمي لهذا الطاعون هو داء الجدري الذي أصاب الفيالق الرومانية العائدة من حملاتها العسكرية في الشرق. وكانت خسائره فادحة، حيث تسبب في موت أعداد هائلة من الجيش الروماني، مما شكل ضربة قاصمة للقوة العسكرية الرومانية. ونظرا لامتداد النفوذ الروماني على مناطق شاسعة من العالم القديم، فقد أصاب الطاعون الأنطوني أعدادا هائلة من الناس في أنحاء مختلفة من أوروبا، بفعل سرعة انتشاره وانتقال عدواه بين الأشخاص. وقد شكل هذا الوباء منطلقا لتحول تاريخي خطير في تاريخ الإمبراطورية الرومانية ومعها تاريخ العالم، حيث أسفر حسب المؤرخ بوتشيش - ولو عن بعد - عن ثلاث نتائج مفصلية ستجعل الإمبراطورية الرومانية تنتقل من حقبة إلى حقبة جديدة. تتمثل فيما يلي:

- أولها: انهيار القدرة العسكرية للإمبراطورية الرومانية، بسبب نقل جيشها الغازي عدوى الوباء إلى قلب المجتمع الروماني وإلى قوته الذاتية، مما أضعف كيان الإمبراطورية، وأدى إلى سقوطها المفجع على يد القبائل الجرمانية.

¹ انظر الرابط التالي: <https://www.albankaldawli.org/ar/topic/pandemics>، تاريخ الاطلاع 2020/5/25 م.

² بشارة، عزمي (2020): جبر الخواطر في زمن المخاطر: الناس والوباء، قطر، سلسلة مقالات من منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، ص 4-5.

³ أكميز، عبد الواحد (2020): الجوائح وجدلية الدولة والحضارة، ضمن كتب: أي دور للمؤرخ في فهم أزمة كورونا، الرباط، مركز تكامل للدراسات والأبحاث، ص 54.

⁴ S Sabbatani 1, S Fiorino. (2009), [The Antonine Plague and the decline of the Roman Empire] <https://pubmed.ncbi.nlm.nih.gov/>

- أما الثانية: فتتجلى في السؤال الوجودي الذي طرحه المجتمع الروماني آنذاك حول تعدد الآلهة ومدى دورها في التصدي لهذا الوباء. ومن ثم بدأ المعتقد الوثني في التلاشي، ممهدا الطريق لحقبة ظهور الديانة المسيحية التي انتشرت بعد ذلك في عهد الإمبراطور الروماني قسطنطين (315-333 م).
- أما الثالثة: فقد تجسدت في تلاشي نظام العبودية الذي رسخته الأنظمة القديمة اليونانية والرومانية¹.

وهكذا، كان الطاعون الأنطوني وراء تحولات تاريخية عميقة في التاريخ الروماني ومن خلاله في التاريخ العالمي القديم، تمثلت في التمهيد لظهور المسيحية، وسقوط الإمبراطورية الرومانية وانهايار نظام الرق، بفعل ما سببه وباء الطاعون من سقوط حضاري، وسؤال وجودي حطم المعتقدات الدينية وأنماط الإنتاج القديمة².

وخلال العصور الوسطى، شكل مرض الطاعون تهديداً جدياً للحضارة الإنسانية، فاقت آثاره بمراحل آثار هجمات الشعوب والقبائل الهمجية على مراكز الحضارة في الصين والشرق الأدنى وأوروبا آنذاك. ذلك أن موجات الطاعون التي ضربت المدن هنا وهناك، حصدت أرواح الناس حصداً، مخلفة كوارث ديموغرافية كبرى، وآثاراً سلبية عميقة على البنيات الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية، ومن ثم البنيات السياسية. فكانت موجات متتالية من وباء الطاعون قد ضربت منذ العصر البيزنطي الشرق الأوسط وصولاً إلى شمال إفريقيا، ومن ثم أوروبا، حتى إنه لم يخل قرن من طاعون جارف طيلة العصور الوسطى.

وهكذا، كانت الإمبراطورية البيزنطية خلال منتصف القرن السادس الميلادي على موعد مع طاعون، يصنفه المؤرخون من أشد الأوبئة والطواعين فتكا في تاريخ البشرية في العصر الوسيط على الأقل، وهو المعروف بطاعون جستنيان Justinian's Plague - نسبة إلى الإمبراطور الحاكم آنذاك-والذي اجتاح الإمبراطورية البيزنطية ما بين سنتي 541-543م. خلف هذا الطاعون نتائج

¹ بوتشيش، إبراهيم القادري (2020): هل يقرب وباء كورونا نهاية العولمة وبداية تحقيب جديد للتاريخ؟ مقال منشور بموقع بيت الحكمة العراقي ، انظر الرابط التالي:

http://www.baytalhikma.iq/News_Details.php?ID=1223

² على خلاف هذا الرأي يذهب المؤرخ عبد الواحد أكميز إلى التأكيد على أن التغييرات السياسية العميقة التي طرأت على الإمبراطورية الرومانية شرقاً ستحدث فيما بعد، مثل انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين: الإمبراطورية الشرقية والرومانية الغربية، ومثل سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية، لم يكن سببه المباشر على الأقل هو الوباء؛ فالانقسام إلى إمبراطوريتين كان بسبب الصراع على السلطة، وسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية كان بسبب هجمات الشعوب الجرمانية. وقد حدث الانقسام بعد قرنين من الوباء، في حين أن سقوط روما حدث بعد ثلاثة قرون من الوباء. أكميز، مرجع سابق، ص55.

كارثية على الامبراطورية البيزنطية بالنظر إلى انتشاره الواسع، حيث اجتاحت القسطنطينية وبلاد مصر والشام وفارس والأناضول وغيرها من البلاد. وكانت خسائره البشرية ثقيلة جدا. كما تسبب في شل الحركة الاقتصادية وتعطيل الطرق التجارية التي كان يعتقد أنها السبب في انتشاره، وتسبب أيضا في إضعاف قوتها العسكرية بموت عدد كبير من جنودها، مما أفسح المجال أمام أعدائها لانتزاع مناطق شاسعة كانت خاضعة لها. ويرى المؤرخ بوتشيش أن طاعون جستينيان كان "سببا قويا عجل بنهاية الامبراطورية البيزنطية، وبداية ميلاد حقبة الحضارة الإسلامية الفتية التي ورثت مجد البيزنطيين"¹. ورغم ما يمكن أن يقال بشأن هذه المحاولة التحقيقية التي جعلت من هذه الأوبئة منعطفات حاسمة وجديرة بأن تعتمد في هندسة التحقيب التاريخي العالمي، وخاصة من حيث الربط بين انهيار الامبراطورية البيزنطية وبداية ميلاد حقبة الحضارة الإسلامية التي تجد تفسيرها في نظرنا في أهمية العوامل الذاتية؛ إلا أنها فعلا تبقى من الأحداث الجسام التي خلخلت بنية التطور التاريخي والحضاري للقوى العظمى الرومانية والبيزنطية، ومن خلالهما التاريخ العالمي القديم والوسيط.

ومع نهاية العصور الوسطى وإطلالة العصور الحديثة، تعرضت البشرية لأشد الأوبئة والطواعين فتكا في تاريخها، يتعلق الأمر بالطاعون الأسود أو الموت الأسود خلال القرن الرابع عشر الميلادي. لقد اجتاحت الطاعون الأسود أوروبا ما بين 1347م و1351م، وأتى على نحو ثلث ساكنة أوروبا (حوالي 25 مليون نسمة). بالإضافة إلى خسائر بشرية هائلة أخرى من ساكنة آسيا، وخاصة الصين التي يعتقد أنها كانت موطن الوباء؛ وشمال إفريقيا بما فيها بلاد المغرب².

وقد خلف هذا الوباء نتائج وعواقب عميقة على مسار التاريخ الأوروبي، وشكل منعطفات تاريخية للانتقال من مرحلة العصور الوسطى إلى العصور الحديثة. ذلك أن الطاعون أثبت عجز السلطات التي ظلت ممسكة بزمام الأمور في أوروبا خلال العصور الوسطى، بتحالف بين النبلاء وأمراء الإقطاع على التصدي له. وشكل هذا العجز إعلانا عن إفلاسها وعن إفلاس نظام الإقطاع برمته. فترتب عن ذلك نتيجتان تعكسان الانتقال من حقبة قديمة إلى حقبة جديدة، تمثلت الأولى في عجز النظام الإقطاعي عن مواجهة الكوارث الصحية، وإفلاسه اقتصاديا بعد الضرر الذي لحق بالطرق التجارية والنزيف الديموغرافي في عمالة الأرض من الأقنان. وتمثلت النتيجة الثانية في طرح السؤال الوجودي حول دور الكنيسة في مواجهة الموت، بعد أن وقفت مشلولة عاجزة عن مواجهة هذا الوباء، مما جعل صورتها تتزعزع في مخيال الناس، وهي التي سيطرت على وجدانهم طيلة العصر الوسيط³.

¹ بوتشيش، مرجع سابق.

² أبطوي، محمد (2020م): دراسة الوباء وسبل التحرز منه: الأوبئة في الطب العربي وفي التاريخ الثقافي والاجتماعي. بحث منشور بالمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص 22.

³ بوتشيش، مرجع سابق.

وتوالى خلال مراحل التاريخ الحديث والمعاصر سلسلة من الأوبئة والطواعين، رغم التحسن الملموس الذي كانت البشرية تراكمه في المعرفة العلمية؛ وتوسع نطاقها الجغرافي، حيث اجتاحت "العالم الجديد" الذي كان في منأى عن عولمة الأوبئة بسبب عزلته التاريخية والجغرافية. وهكذا، فقد انتقل داء الجدري ما بين القرنين 15 و17م، بين القارتين الأوروبية والأمريكية وحصد ملايين الأرواح. وفقد العالم الجديد تحت وطأة هذا الداء قدرته الدفاعية في مواجهة الاستعمار الأوروبي. وخلال القرن التاسع عشر، اجتاحت العالم الكثير من الأوبئة، وخاصة وباء الكوليرا الذي تردد أكثر من ست مرات. انطلق في البداية من الهند، ثم انتقل إلى كثير من مناطق العالم، وأودى بحياة ملايين الأشخاص خاصة في المناطق الأقل نمواً لانتقال العدوى عن طريق الطعام أو الماء الملوثين بجراثيم معينة.

واستمر مسلسل الفتك الوبائي بالبشرية في القرن العشرين، كما يوضح ذلك الجدول الآتي بالتركيز على أخطر الأوبئة وأماكن تفشيها وأعداد ضحاياها¹:

الوباء	السنة	المكان	الوفيات
الطاعون الدبلي	1894-1903	الهند والصين وأجزاء من مناطق أخرى حول العالم	10 ملايين
وباء الكوليرا	1899-1923	مقاطعة البنغال الهندية وانتقل إلى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وروسيا وأجزاء من أوروبا	800 ألف وفاة
الطاعون الدبلي	1855-1950	انتشار عالمي	15-10 مليون وفاة
الإنفلونزا الإسبانية	1918-1919	أصابته قسماً كبيراً من سكان العالم مع انتهاء الحرب العالمية الأولى	50-40 مليون وفاة
التيفوس	1918-1922	روسيا وأوروبا الشرقية	3 ملايين

¹ ملف طبي وصحي: الأوبئة والمجاعات لا الحروب.. أكبر عوامل القتل في العالم عن موقع الجزيرة ، انظر الرابط التالي: <https://www.aljazeera.net/news/healthmedicine/2020/2/4/>

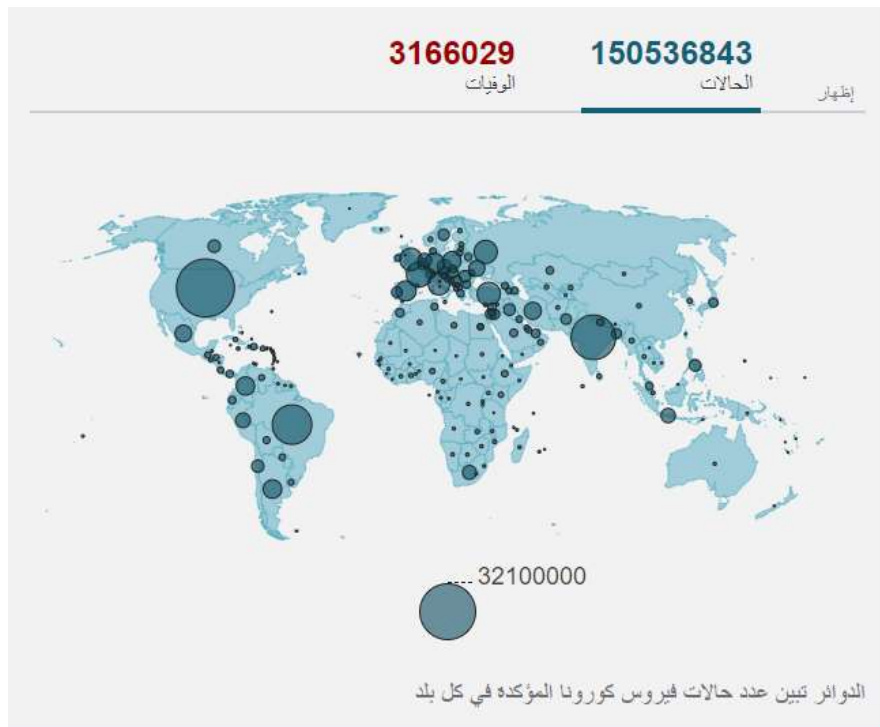
إينفلونزا الآسيوية	1957- 1958	تعود بؤرة هذا الوباء إلى الصين، وانتشر على نطاق واسع في شتاء 1957 إلى ربيع 1958، على موجتين حادتين	مليون إلى أربعة ملايين شخص في العالم
إنفلونزا هونغ كونغ	1968- 1969	اعتبر برأي علماء الأوبئة أول وباء عام انتشر على نطاق واسع في العصر الحديث، أي عصر وسائل النقل الجوي السريع، والأول أيضا الذي أشرفت على مراقبته شبكة عالمية	مليون إلى مليونين شخص
الإيدز	منذ 1981	يعد الأكثر فتكا على الإطلاق، والعلماء غير منتقين بخصوص مصدر الوباء، لكن معظمهم يتفقون على انتقاله من القرد إلى الإنسان	78 مليون مصاب، توفي منهم 39مليونا

وخلال القرن الحادي والعشرين، يتواصل مسلسل الأوبئة، كما يبين ذلك الجدول التالي:

الوباء	السنة	المكان	الوفيات
متلازمة الالتهاب التنفسي الحاد "سارس"	2002- 2003	ظهر في إقليم غوانغدونغ في جنوب الصين	أكثر من 8000 مصاب، وأكثر من 800 وفاة، حوالي 350 منهم في الصين
إنفلونزا الطيور "أتش5 أن1"	منذ 2003	اجتاحت إنفلونزا الطيور في البداية مزارع دجاج في هونغ كونغ قبل انتقالها إلى البشر، ودفعت منظمة الصحة العالمية لإعلان حالة طوارئ صحية عامة ذات بعد عالمي	حوالي 400 وفاة

في البداية قدرت منظمة الصحة الوفيات بحوالي 18500، ولكن مراجعة نشرت في مجلة لانست عام 2012 رفعتها إلى ما بين 151 ألفا و 575 ألفا.	ظهر في المكسيك أواخر مارس 2009. وأطلق إنذار من خطر انتشار الوباء على نطاق واسع في 11 يونيو 2009، ورفع في 10 أغسطس 2010	2009	إنفلونزا الخنازير "أتش 1 أن 1"
أدى الوباء إلى 11325 وفاة	ظهر في غينيا وامتد إلى سيراليون وليبيريا	2014- 2016	فيروس إيبولا
أكثر من مليوني وفاة وما زال الوباء مستمرا في حصص الوفيات عبر العالم	انتشار عالمي	2019-...	كورونا كوفيد 19

خريطة انتشار وباء كوفيد - 19 الذي يسببه فيروس كورونا، مع أحدث البيانات وأعداد الإصابات والوفيات حول العالم:



المصدر: جامعة جونز هوبكنز، والمؤسسات الصحية الوطنية
آخر تحديث للبيانات 30 أبريل 2021 م 11:43 ص غرينتش+3

الأوبئة وأثرها في السياق التاريخي العربي الإسلامي: العصر الأموي أنموذجا.

لعل من أهم الآثار التي ترتبت عن هجمة فيروس كوفيد 19 في البيئة العربية الإسلامية، هي أنها شكلت دافعا قويا للإنسان العربي والمسلم من أجل قراءة جديدة لتاريخه الذي لم يكن مجرد معارك وغزوات وحروب وصراعات حول السلطة في الداخل، وحول المجال والنفوذ والثروة في الخارج؛ بل هو أكثر من ذلك، فهو معركة متواصلة على مختلف الجبهات في سبيل البناء الحضاري العمراني والعلمي والثقافي والاقتصادي والاجتماعي... ومنها المعركة المتواصلة ضد الأوبئة والطواعين والكوارث والمجاعات... فما أثر الأوبئة في التاريخ الإسلامي؟

يبدو أن الإنسان العربي قبل الإسلام لم يكن على علم بالطواعين والأوبئة، كما يدل على ذلك خلو الإرث الثقافي العربي من أخبارها، على غرار ما تناقلته الثقافة اليونانية والرومانية المعاصرة لها. ومع بداية مرحلة الفتوحات الإسلامية، واتساع رقعة الإسلام، واختلاف البيئات الجغرافية بدأت الأوبئة تتسلط عليه بين الفينة والأخرى على غرار باقي الشعوب. ولعل "طاعون عمواس" كان أول حلقة في هذا المسلسل المريع من الأوبئة في تاريخ الإسلام¹. فقد تسلط على بلاد الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سنة 18هـ/ 640م، طاعون عرف باسم البلدة التي ظهر فيها وهي بلدة عمواس، وخلف خسائر بشرية كبيرة، حيث تراوح عدد ضحاياه ما بين 25 و30 ألف نسمة حسب المصادر التاريخية الإسلامية، من بينهم مجموعة من الصحابة، مثل معاذ بن جبل، وأبي عبيدة بن الجراح الذي كان واليا على بلاد الشام آنذاك². وقد اعتبر المؤرخون طاعون عمواس امتدادا لطاعون جيستيان الذي ضرب في القرن السابق الامبراطورية البيزنطية. كما يخلد هذا الطاعون لأول حجر صحي في الإسلام بقيادة الخليفة عمر بن الخطاب في سبيل منع وصوله إلى شبه الجزيرة العربية³. سجلت المصادر التاريخية ذلك الجدل الفكري والديني، عن بعد، حول تدبير أزمة الطاعون تلك، بين الخليفة عمر بن الخطاب لما بلغه خبر وباء عمواس، مع واليه على بلاد الشام أبي عبيدة بن الجراح. وملخصها مطالبة الخليفة عمر للوالي بضرورة الخروج من البلاد الموبوءة، في حين كان للوالي رأي مخالف، حيث فضل البقاء هناك مع جيشه، فتوفي رحمه الله مع عدد من الصحابة وقادة الجيش⁴.

¹ مرقطن ، محمد (2022م): الأوبئة والجوائح في الشرق الأدنى القديم منذ أقدم العصور حتى طاعون عمواس دراسة في تأثيراتها في العمران البشري، الدوحة، مجلة أسطور، العدد15، ص 72-95.

² - ابن الأثير (1997م): الكامل في التاريخ، تحقيق عبد السلام تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ج.2، ص 376.

³ - ابن الأثير، المصدر نفسه.

⁴ - تذكر الرواية التاريخية أنه لما بلغ خبر الطاعون إلى الخليفة عمر بن الخطاب، كتب إلى أبي عبيدة ليستخرجه منه: أن سلام عليك، أما بعد، فإنه قد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشفهك فيها، فعزمت عليك إذا نظرت في

خلال العصر الأموي، وبعد انتقال الإنسان العربي من بيئته الأصلية شبه الجزيرة العربية ذات المناخ الحار، إلى البلاد المفتوحة ذات السهول الفيضية وخاصة في الشام والعراق ومصر... ازدادت معاناته مع كثرة الأوبئة والطواعين، حيث كانت البيئات الجديدة مناسبة لذلك. وترتبت عنها آثار ديموغرافية كبيرة على القبائل العربية المستقرة حديثاً بتلك البلاد. فكان العصر الأموي من أقسى العصور التي عانى فيها الإنسان العربي من وطأة الوباء، قبل أن يتمكن جسمه عبر أربعة أجيال تقريباً من اكتساب المناعة اللازمة لمقاومة الأمراض الفتاكة على غرار الأهالي. وقد انتبه العباسيون إلى ظاهرة تراجع الأوبئة والطواعين في عصرهم، فحاولوا استغلال ذلك في الدعاية السياسية لأنفسهم وتركيز حكمهم، باعتبار أن من بركتهم ارتفع الطاعون عن الناس¹.

لعل من دواعي التركيز على ظاهرة الطواعين في العصر الأموي، كنموذج للتاريخ الإسلامي هو الأبعاد التاريخية الخطيرة التي اتخذتها هذه الطواعين، حيث تجاوز مداها الأبعاد الاجتماعية والإنسانية إلى الأبعاد السياسية الكبرى، إلى درجة جعلت بعض الدراسات تعتبر أن الطاعون يشكل عاملاً حاسماً في سقوط الخلافة الأموية، وقيام الخلافة العباسية. وهي إشارة قوية إلى التأثير العميق للأوبئة والطواعين في التاريخ السياسي الإسلامي العام.

تحدث أحمد العدوي في الفصل الثاني من كتابه "الطاعون في العصر الأموي صفحات مجهولة من تاريخ الخلافة الأموية"²، عن ظاهرة "فوران الطواعين في العصر الأموي"، وقدم عملية إحصائية بناء على المصادر الإخبارية والتاريخية، تبين من خلالها حقيقة أن العصر الأموي كان عصر الطواعين بامتياز. لكن هذا لا يعني أن البلاد العربية والإسلامية لم تعرف الظاهرة قبل ذلك وبعده.

كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إلي قال: فعرف أبو عبيدة أنه إنما أراد أن يستخرجه من الوباء، قال: يغفر الله لأمر المؤمنين! ثم كتب إليه: يا أمير المؤمنين، إني قد عرفت حاجتك إلي، وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسني رغبة عنهم، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره وقضاه، فحللني من عزمك يا أمير المؤمنين، ودعني في جندي فلما قرأ عمر الكتاب بكى، فقال الناس: يا أمير المؤمنين، أمات أبو عبيدة؟ قال: لا، وكان قد قال: ثم كتب إليه: سلام عليك، أما بعد، فإنك أنزلت الناس أرضاً غمقه، فارتفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة فلما أتاه كتابه دعاني فقال: يا أبا موسى، إن كتاب أمير المؤمنين قد جاءني بما ترى، فأخرج فارتد للناس منزلاً حتى أتبعك بهم، فرجعت إلى منزلي لأرتحل، فوجدت صاحبتني قد أصيبت، فرجعت إليه، فقلت له: والله لقد كان في أهلي حدث، فقال: لعل صاحبك أصيبت! قلت: نعم، قال: فأمر ببعيره فرجل له، فلما وضع رجله في غرزة طعن، فقال: والله لقد أصبت ثم سار بالناس حتى نزل الجابية، ورفع عن الناس الوباء...". الطبري (1387هـ)، تاريخ الرسل والملوك، بيروت، دار التراث، ج4، ص. 60؛ ابن الأثير، مصدر سابق، ج2، ص377.

¹ العسقلاني، ابن حجر (د.ت)، بذل الماعون في فضل الطاعون، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب، الرياض: دار العاصمة، ص364.

² العدوي، أحمد (2018)، الطاعون في العصر الأموي صفحات مجهولة من تاريخ الخلافة الأموية، قطر: منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

فالمصادر تحدثت-كما ذكرنا سابقا- عن طاعون عمواس كواحد من أشهر الطواعين في تاريخ الإسلام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب. ثم توالى الطواعين في العقود الموالية من تاريخ الإسلام خلال العصر الأموي، وهي كثيرة¹، منها: طاعون المغيرة بن شعبة في عام 50هـ/ 670م؛ طاعون زياد بن أبيه 53هـ/ 762 - 763م؛ طاعون مصر 66هـ/ 685م؛ طاعون ابن الزبير 69هـ/ 688م؛ طاعون مصر 86هـ/ 705م؛ طاعون الفتيات 87هـ/ 705 - 706م؛ طاعون الأشراف في واسط؛ طاعون عدي بن أرطأة 100هـ/ 718م؛ طاعون الشام 107هـ/ 725م؛ طاعون الشام 115هـ/ 733م؛ طاعون غراب 127هـ/ 744م، ثم طاعون مسلم بن قتيبة 131هـ/ 748م.

وإجمالاً، يمكن القول إن الطاعون يكاد لم ينقطع في العهد الأموي. وخلفت تلك الطواعين نتائج وآثاراً وخيمة على الحياة الديموغرافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية كذلك. فعلى المستوى الديموغرافي، تذكر الشهادات المعاصرة الانتشار المريع للموت في صفوف ساكنة المناطق الموبوءة. فقد خلف طاعون ابن الزبير الجارف الذي ضرب العراق والشام عام 69هـ/ 688م حصيلة ثقيلة جداً، خلال فترة فورته لثلاثة أيام، حيث قضى خلالها نحو 200 ألف شخص في مدينة البصرة وحدها، بمعدل وفيات يقترب من 70 ألف ضحية لليوم الواحد من أيام فورة الوباء الثلاثة². ومن أخطر هذه الطواعين، طاعون مسلم بن قتيبة عام 131هـ بالبصرة، في عهد مروان بن محمد (132هـ/ 750-49م). سمي باسم أول ضحاياه وهو مسلم بن قتيبة³. وقد أودى بحياة عدد كبير من الضحايا بالبصرة وغيرها من المناطق التي انتشر بها، وبلغت الوفيات اليومية في ذروة هذا الطاعون حوالي ألف وفاة في اليوم. فحصد أرواح الناس حصداً، حيث كان يتجمع، في كل يوم على بوابات المدن، ما بين مئة إلى خمسمئة نعش، في كل نعش ما بين ثلاث إلى أربع جثث. وكانت بوابات المدن ولا سيما في إقليم الجزيرة لا تُغلق على مدار اليوم بسبب خروج حاملي الجثث الذين سرعان ما كانوا يعودون سريعاً لحمل غيرها، في حركة لا تهدأ على مدار اليوم. وعمّ الموت إلى درجة أن أحد الرهبان كتب قائلاً: «وشلمهم الموت جميعاً من دون تفرقة بين صغير وكبير. لم يبق منهم أحد! أما الذين تصادف أن نجوا من تلك الكارثة، ولم يلقوا حتفهم، فقد أسرعوا بالفرار إلى خارج المدن». حتى تحولت المدن الكبرى وحواضر الأقاليم، ولا سيما إبان حمى الطواعين الجارفة، إلى مدن أشباح.

ومن الناحية السياسية، فقد أسفرت فورات الطاعون المتتالية عن تراجع أعداد العرب، وهم عماد جيوش بني أمية، في العراق والشام، تراجعاً حاداً. ونجم عن هذا في نهاية المطاف عجز الدولة الأموية عن مقاومة الثورة العباسية الوليدة التي انطلقت من أماكن بعيدة نسبياً عن تلك الأماكن التي

¹ أحمد العدوي، المرجع نفسه، ص 57-94.

² أحمد العدوي، المرجع نفسه.

³ أحمد العدوي، المرجع نفسه، ص 15.

اعتاد الطاعون ضربها؛ إذ أحسن الثوار العباسيون اختيار الوقت الملائم لإعلان ثورتهم بين طاعونين كبيرين أصابا الشام والعراق بين عامي 127هـ/ 743م و131هـ/ 748م، هما طاعون غراب وطاعون مسلم بن قتيبة. فكان طاعون مسلم بن قتيبة في عام 131هـ/ 748م بمنزلة فصل الختام بالنسبة إلى الدولة الأموية؛ إذ أسفر عن خسائر مادية وبشرية هائلة أصابت قلب الدولة، وحرمت مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، من إمكانية إرسال المدد إلى واليه على خراسان ليوقف به زحف العباسيين¹. وهكذا، أسهم الطاعون في سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية. وعلى الرغم من أنه من الصعوبة اعتماد التفسير الأحادي المتمثل في أثر الطاعون في هذا التحول التاريخي الكبير، باعتبار أن سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية قد أسهمت فيه عدة عوامل سياسية واجتماعية وفكرية... لكن أثر الطاعون بدوره لا يمكن التغافل عنه، لما سببه من إرهاب للدولة وقوتها العسكرية، مما جعلها عاجزة عن مواجهة تطلعات الثوار العباسيين في ظرفية صعبة للغاية بالنسبة للدولة القائمة. نكتفي بهذا النموذج من الأوبئة المؤثرة في التاريخ العربي والإسلامي، لننتقل إلى الشطر الغربي للعالم الإسلامي. فما أبرز تأثيرات الأوبئة والطواعين على مسار تاريخ المغرب خاصة؟

الأوبئة في تاريخ المغرب: الآثار والتحديات

ترددت الأوبئة والجوائح في تاريخ المغرب عبر العصور بطريقة تكاد تكون منتظمة، وأحصى بعض الدارسين المعاصرين عدد الأوبئة والجوائح التي تعرض لها المغرب ما بين القرنين الثاني عشر والتاسع عشر، حوالي 140 جائحة ووباء، منها الطاعون والجذري، والكوليرا... بمعدل يصل إلى 17.5 جائحة في القرن، أي مرة كل خمس سنوات². وإذا كان من الصعب تقديم تفسير علمي شامل لهذه الظاهرة، فيمكن القول من باب الافتراض العلمي إن ذلك قد يرجع إلى موقع المغرب الجغرافي المتميز بانفتاحه على عوالم إفريقيا وأوروبا وآسيا وخاصة الشرق الإسلامي، فضلا عن عوامل أخرى بيئية وصحية... ولعل من أخطر الأوبئة التي عرفها المغرب في نهاية العصور الوسطى، الطاعون الأسود الذي ضرب مناطق شاسعة من خريطة العالم بآسيا الوسطى وأوروبا وشمال إفريقيا خلال الفترة الممتدة بين 1347م و1352م. ومعلوم أن هذا الطاعون يصنف كأكبر كارثة صحية في تاريخ الإنسانية، حيث أودى بحياة ما بين 40 في المائة إلى 60 في المائة من سكان أوروبا والشرق الأوسط وإفريقيا عندما ضرب العالم في سنوات الذروة الممتدة بين 1346 و1353م. وتجرع المغرب والغرب الإسلامي عموما بحكم قربهما واحتكاكه مع أوروبا، مرارة هذا الطاعون الجارف³.

¹ - أحمد العدوي، المرجع نفسه.

² ملين، نبيل (2020م): إدارة الأوبئة في المغرب عبر التاريخ ومنظور الفقهاء بين المنطق والغيبيات ضمن موقع دنا برس، انظر الرابط التالي: (danapress.ma)، تاريخ الاطلاع: 2021/4/20.

³ - ابن الخطيب (2015م): مقنعة السائل عن المرض الهائل، تقديم وتحقيق حياة قارة، الرباط: دار الأمان، ص 55-41؛ 85-92.

فعرف نتيجة لذلك انهيارا ديموغرافيا وعمرانيا شاملا. وتسبب في موت أعداد كبيرة من ساكنة الغرب الإسلامي، حتى وصلت الوفيات إلى سبعمائة وفاة في اليوم الواحد ببرقة، وحوالي ألف من الوفيات في اليوم الواحد بتونس. كما أهلك عددا كبيرا من جيش السلطان أبي الحسن المريني. وراح ضحيته عدد من العلماء وأسرهم مثل والدة ابن بطوطة، ووالدي ابن خلدون. كما عمّ الموت جزيرة الأندلس¹. فكان إذا دخل الدار عصف بأهلها المباشرين ثم جيرانهم وأقاربهم وزوارهم حتى اتسع الخرق. ولم ينج من الطاعون إلا الذين عزلوا أنفسهم كليا عن العالم الخارجي، مثل العالم الصوفي ابن أبي مدين في مدينة سلا، الذي قدم درسا بليغا في الحجر الصحي الذاتي، حيث تزود لمدة وأغلق باب منزله على أهله. أما المناطق التي ظلت مفتوحة فقد وهبت نفسها للطاعون ليفتك بها. وهو ما أشار إليه بدقة أبو جعفر ابن أبي خاتمة أديب أطباء الأندلس (ت بعد 770هـ / 1369م) حيث قال: "واطلعت من حال البلدان التي حرص أهلها على أن لا يدخل إليهم أحد من بلاد الوباء وحافظوا على ذلك أن استصحبوا السلامة زمانا حتى غلبوا على ذلك. وإن أكثر أهل الحصون التي تلي ألمرية ونزل بها الحادث ليؤرخوا زمان نزوله بهم بقدم فلان وفلانة عليهم من الوباء وموته بين أظهرهم. ولهم في التحفظ من ذلك والتورط فيه حكايات تواترت بانتشارها فلا معنى لإنكارها"².

وقد أجاد المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون (ت 808هـ / 1406م) الذي اكتوى بدوره بنار الطاعون بفقد والديه، في التعبير عن هول الكارثة التي خلفها الطاعون الأسود على بلاد المغرب بعد أن اجتاحه سنة 749هـ / 1348م حيث يقول: "وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهده وتبدلت بالجملة (...). هذا إلى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة والله وارث الأرض ومن عليها وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث"³.

¹ - ابن الخطيب، المصدر نفسه، ص 41 وما يليها.

² بن منصور، هاجر (2020م): الطاعون الأسود من آسيا إلى الغرب الإسلامي، ضمن كتاب الأوبئة عبر التاريخ، سلسلة المؤتمر الافتراضي الدولي الأول العلوم الإنسانية والاجتماعية رؤية جديدة بعد الجائحة، الجزائر، دار خيال للنشر والترجمة، ص. 63.

³ ابن خلدون (2014م): كتاب المقدمة، تحقيق عبد الواحد وافي، ط7، مصر: دار النهضة، ج1، ص 325-326.

وهكذا، عبر ابن خلدون عن إدراكه العميق لتأثير الطاعون الأسود، حيث اعتبره منعطفا حاسما في تحقيق تاريخ العمران البشري. فقد انقلبت أحوال العمران وتاريخ البشرية رأسا على عقب بسبب الطاعون الجارف. وفعلًا، إن تاريخ العالم بعد الطاعون ليس هو تاريخه قبل الطاعون. فقد كان بحق خطأ فاصلا في التاريخ الغربي والإسلامي بين مرحلة العصور الوسطى والعصور الحديثة، مع ما شهده العالمان الإسلامي والغربي من تحولات عميقة إثر الطاعون الأسود.

ولما كان هذا الحدث غير مسبوق بالنسبة للبشرية ككل وللغرب الإسلامي خاصة، فقد تفاعل معه العقل المغربي والأندلسي تفاعلا علميا أيضا. وألف علماء المغرب والأندلس في علم الأوبئة وخلصوا أعمالا ذات فائدة عظيمة.

وكان ممن ألف في هذا الموضوع الفقيه والطبيب أبو جعفر أحمد بن علي الأنصاري المريبي الأندلسي المعروف بابن خاتمة (ت بعد 770هـ / 1368م)، ألف كتاب «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد»¹، وكان ابن خاتمة قد شهد ظهور الطاعون الأسود (القرن 14م) ووصله إلى مدينة ألمرية جنوب شرق الأندلس سنة 749هـ/1348م، حيث فتك بالآلاف من أهلها. وقد ألفه تلبية لطلب بعض أصدقائه الذين سألوه عن "حقيقة هذا الطاعون الظاهر بالمرية بتاريخ عام تسعة وأربعين وسبعمائة والتعريف به بحسب القول الطبي، وعن سببه الخاص والعام، وما باله خص قوما دون آخرين على قرب الجوار، وعن ما ظهر من عدواه، وكيف التحفظ والاحتراز منه، وما علاجه إذا نزل، وما جاء عن الشارع فيه صلوات الله وسلامه عليه، وما معنى حديث النهي عن القدوم إلى أرضه، أو الخروج عنها فرارا منه، وما معنى قوله عليه السلام: لا عدوى ولا طيرة، وكيف الجمع بين الحديثين". فرتب المؤلف كتابه على عشر مسائل:

- المسألة الأولى: في حقيقة وباء الطاعون
- المسألة الثانية: في أسباب الوباء القريبة والبعيدة
- المسألة الثالثة: ما باله خص قوما دون آخرين مع قرب الجوار.
- المسألة الرابعة: ما ظهر من عدواه
- المسألة الخامسة: كيف التحفظ والاحتراز منه.
- المسألة السادسة: ما علاجه إذا نزل؟

¹ الخطابي، محمد العربي (1988م): الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، بيروت: دار الغرب الإسلامي، نسخة خطية محفوظة بخرانة الإسكوريال بإسبانيا برقم: 1785.

- المسألة السابعة: ما جاء في الشرع عنه
 - المسألة الثامنة: ما معنى حديث النهي عن القدوم إلى أرضه.
 - المسألة التاسعة: ما معنى قوله عليه السلام: "لا عدوى ولا طيرة"؟
 - المسألة العاشرة: كيف الجمع بين الحديثين؟
- وبرع هذا العالم في وصف حقيقة الطاعون، وأسباب ظهوره، وسرعة انتشاره، وسبل التحفظ والاحتراز منه، إلى غيرها من المباحث الفقهية والطبية التي عالجها بنظر ثاقب، وفهم سديد¹.
- ومن أهم من ألف في هذا المجال كذلك، المؤرخ والفقيه والطبيب أبو عبد الله لسان الدين ابن الخطيب (ت 776هـ / 1374م)، الذي ألف مقالة سماها "مقنعة السائل عن المرض الهائل"². وهي رسالة في الطاعون الجارف الذي نكبت به الأندلس سنة 749هـ، ذكر فيها أعراض ظهوره، وطرق الوقاية منه، وسرعة انتشاره، وأعراضه الأولى، وسبل التحوط منها. ثم يصف طرق العلاج والوقاية منه، وما يجب لذلك من الأدوية³.
- ومن أهل المغرب الأقصى الذين برعوا في التأليف في هذا المجال، نذكر عالم الرياضيات والطبيب علي بن عبد الله بن محمد بن هيدور (ت 816هـ/1413م) صاحب "المقالة الحكمية في الأمراض الوبائية". وضع ابن هيدور في هذه المقالة "أنموذجا مختصرا فيما قالت الحكماء ورسمته العلماء في الأمراض الكائنة عن فساد الهواء والأغذية، إذ هذا الزمان وقت كيانه، ووفوده وإتيانه". وشخص فيها أنواع الداء. فقال: "إما بسرعة أو بمهلة. فما كان منها بسرعة ووحى يعم ناسا كثيرة سمي الطاعون الوبائي، ويسمى أيضا المرض الوافد، وما كان منها بمهلة، وغير عام، فيسمى مرضا شخصا جزئيا... وما كان منها بسرعة فإما أن يكون شاملا أو غير شامل، فهي الأمراض الحادة الشديدة التغير القريبة البحران، والأمراض المفاجئة التي تأخذ فجأة وبغته، وأسبابها كثيرة، وكثرتها من الأمراض الامتلائية... وأما الشامل، فهو المرض الوبائي، وهو الذي أردنا ذكره في هذه المقالة المسماة بالمقالة الحكمية في الأمراض الوبائية"⁴.

¹ الجيلاني، عبد اللطيف (2021م): الحَجْرُ الصَّحِّي وأهميته في النَّحْرُزِ من الوَبَاء، موقع <https://www.arrabita.ma> بتاريخ 19 أبريل 2021 م.

² - ابن الخطيب، مصدر سابق.

³ - ابن الخطيب، مصدر سابق، ص7، ص58.

⁴ ابن الخطيب، مصدر سابق، ص 24-25.

وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر (القرنين 10-11هـ) تعرض المغرب لسلسلة من الأوبئة والجوائح والطواعين الفتاكة. وقد تناول هذا الموضوع المؤرخان برنار روزنبرجي وحميد التريكي في كتابهما: المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر¹. ويبدو من خلال الرصد والتتبع الكرونولوجي لظاهرة الأوبئة بالمغرب خلال قرنين من الزمان، أنها كانت تشكل معطى بنيويا في تاريخ المغرب الحديث. وهكذا، دخل المغرب القرن السادس عشر منهكا بأوبئة القرن الخامس عشر وما قبله، وآخرها مرض التيفوس البوابي الذي حملته إلى المغرب اللاجئين المسلمون واليهود بعد سقوط غرناطة 1492م. فاستهل القرن بوباء ظهر بفاس سنة 1509 وآخر بمنطقة سوس سنتي 1511 و1512م. وفي سنة 1519م فقد المغرب عدد كبيرا من سكانه بسبب الطاعون. ولم تمض بضع سنوات حتى وقع المغرب تحت أخطر الأزمات خلال القرنين 16 و17م وأكثرها حدة، وهي أزمة جفاف لكنها توجت باجتياح الطاعون للمجتمع المغربي ومعه المحتلين البرتغاليين للمغرب آنذاك في الثغور والمناطق الساحلية. وبعد عقد من الزمان تقريبا، تعرضت البلاد إلى وباء قاتل سنة 1533م، أعقبه وباء آخر سنة 1536. وفي منتصف القرن السادس عشر، كان المغرب على موعد مع طاعون أجنبي وافد من جهة الشرق، حيث حملت بعض السفن التجارية الطاعون من الأناضول إلى الجزائر، ومن ثم إلى المغرب. وفي سنة 1557م انتشر الطاعون في منطقة الريف بالمغرب، ثم زحف في السنة الموالية إلى باقي البلاد حتى عرف بالطاعون الكبير الذي ذهب بعُشْر سكان المغرب. ومباشرة بعد معركة وادي المخازن، عمّ المغرب وباء شديد سنة 1580م، أفسد على المغاربة نشوة النصر العظيم، وعرف في المصادر المغربية بـ"السعال الكبير" نسبة لأعراض السعال الشديد التي كانت تظهر على المصابين به. ولم يسلم المغرب مع نهاية القرن 16 من الأوبئة الفتاكة التي ظهرت بالدولة العثمانية وشمال إفريقيا، ثم أوروبا، ثم بلاد السودان الغربي².

وتسلط على المغرب مع بداية القرن 17م وباء هلك من أجله آلاف السكان بعد اجتياحه الواسع لمعظم مناطق البلاد، وتسبب في خسارة عظمى في عامة الناس وخاصتهم، وعلى رأسهم السلطان أحمد المنصور الذي تسبب في وفاته سنة 1603م. وكان السلطان على وعي بخطورة الطاعون محذرا أبنائه وولاته منه. وكتب في ذلك رسالته إلى ابنه أبي فارس خليفته في مراكش، يقدم له فيها

¹ روزنبرجي، برنار، والتريكي، حميد (2010م): المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر، ط2، ترجمة: عبد الرحيم حزل، الرباط: دار الأمان.

² Bernard Rosenberger et Hamid Triki, (1973) (1974), «Famines et épidémies au Maroc aux XVI^e et XVII^e siècles», *Hespéris-Tamuda*, vol. XIV, pp. 109-175 ; vol. XV, pp. 5-103.

زبير، لوبني (2020م): تاريخ المغرب بين الجوع والموت، الرباط: مجلة رباط الكتب، مجلة إلكترونية متخصصة في الكتاب وقضاياها.

بعض التوصيات ويحيطه علما ببعض التدابير والإجراءات الاحترازية، حيث يقول: "إلى هذا - أسعدكم الله- أول ما تبادرون به قبل كل شيء هو خروجكم إذا لاح لكم شيء من علامات الوباء ولو أقل القليل حتى بشخص واحد، ثم لا تغفلوا عن استعمال الترياق أسعدكم الله، فالزموه إذا استشعرتكم بحرارة وتخوفتموها فاستعملوا الوصف من الوزن المعروف منه ولا تهملوا استعماله، وأما ولدنا -حفظه الله لمكان الشبيبة- فحيث يمنعه الحال من المداومة على الترياق، فهذا هي الشربة النافعة لذلك قد تركناها كثيرة هُنَالِكُمْ عند التونسي فيكون يستعملها هو والأبناء الصغار المحفوظون بالله حتى إذا أحس ببرد المعدة من أجلها تعطوه الترياق فيعود إليها. والبراءة التي ترد عليكم من سوس أو من عند الحاكم أو من عند ولد خالكم أو من عند غيرهما لا تقرأ ولا تدخل داراً، بل تعطى لكاثبكم هو الذي يتولى قراءتها ويعرفكم مضمونها، ولأجل أن الكاتب يدخل عليكم ويلايس مقامكم فلا يفتحها إلا بعد إدخالها في خل ثقيف وتنتشر فتتيسر وحينئذ يقرأها ويعرفكم بمضمونها إذ ليس يأتيكم من سوس ما يستوجب الكتمان"¹.

ثم عاود الوباء الفتك بالمغاربة، بعد ذلك ببضع سنوات. تحدث عن هذا الطاعون المؤرخ التامنارتي في الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، فقال: "ولما وقع هذا الطاعون بالمغرب سنة خمس أو ست عشرة وألف (1607م)، كان أول ما وقع بالحوضر. فأما أهل فاس، فصبروا وتلقوا الأمر بالتسليم، فارتفع عنهم من سنته، ولم يعد إليهم. وأما أهل مراكش وتارودانت فتفرقوا له في البادية والجبال، فكان أكثر وقوعه بهم انقراض جل أعيانهم حتى استولى الخراب من ذلك على الحاضرتين، ثم لم يزل يعود إليهم سنة بعد سنة وهم يفرون منه مدة من اثني عشرة عاما. فكان يرى -والله أعلم- أن ذلك من شؤم الفرار منه والجزع منه"². ويزيد التمنارتي في وصف شديد الدقة للطاعون الذي ضرب المغرب مع بداية القرن 17، وما ترتب عنه من عواقب وخيمة ديموغرافيا واقتصاديا واجتماعيا...، فيقول: "فنزل الأمر الذي ينسف الأقطار، ويجرفها جرف السيول والأمطار، طاعون السادس عشر بعد الألف، واستمر خناقه وعناقه إلى العام السادس عشر بعد الألف فلم يدع بنيانا إلا صدعه، ولا بابا إلا قرعه، ولا جمعا إلا فرقّه، ولا ذا حال إلا طرقه، حتى اغتال ملكه المنصور، وكل الأسد الهصور، فكسد سوقه، ومُطِلت حقوقه، وتعطلت مصادره وموارده، وطمست سبله ومعاهده، فركب أهله الهوان، وشملهم الخذلان، وأسر العدو - دمره الله- غرر بلاد العدوتين، وألقى عرشه

¹ الوفراني، محمد الصغير (1988م): نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشادلي، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ص 273-274.

² التمنارتي، أبو زيد عبد الرحمن (2007م): الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، تحقيق اليزيد الراضي، بيروت: دار الكتب العلمية، ص 11-111.

بعرائشه، وخلق حلق واديه بإحدى المعرتين، وكان السبب في ذلك الحادث المذكور موث أمير المؤمنين المنصور رحمه الله¹.

يقدم لنا التمارتي قراءة عميقة لأثر الطاعون على المغرب وعلى الدولة السعدية. فقد كانت وفاة السلطان مصيبة عظيمة أصابت الدولة بشلل تام، شمل الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وسقطت هيبتها التي كسبتها بفضل معركة وادي المخازن، حيث أتاحت الفرصة من جديد للعدو المحتل للعودة لاحتلال الثغور المغربية وفي مقدمتها مدينة العرائش. يتبين من خلال هذه الوقائع أن مغرب القرنين 16 و17م كان يئن باستمرار تحت وطأة الجوائح والأوبئة والطواعين التي كانت تتسلط على المغرب في أحيان كثيرة من جهة الشرق أو الدولة العثمانية، وأحيانا أخرى من جهة الشمال من الدول الأوربية.

ولم تكن حالة المغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بأحسن حال. بل واصلت الأوبئة فتكها بالمغرب عبر السنين، وظل عرضة للهجمات الوبائية من البلدان المتوسطية. وهكذا، سجلت أربعينيات القرن الثامن عشر تفشيا للطاعون بعدة مدن مغربية كفاس ومكناس..، كانت آثاره وخيمة على الإنسان المغربي، حتى كثر الموت وضاعت من الخلائق ما لا يحصى. وقد توقف المؤرخون المغاربة عند هذه المأساة، وذهبوا إلى تفسيرها أخلاقيا ودينيا، باعتبارها غضبا من الله على تفشي المناكر والفحشاء وانتشار الظلم... وتفسيرا سياسيا أيضا مرتبطا بالفتن والحروب والخروج على السلاطين، الذي تجرعت مرارته البلاد خلال أزمة العبيد بعد وفاة السلطان المولى إسماعيل التي استمرت لمدة ثلاثين سنة. فقال عنها الناصري: "وكل ذلك والله أعلم من استيلاء العبيد على الدولة وشؤم افتياتهم وتحكمهم في أعياصها طوع أهوائهم، وحسب أغراضهم، إذ معلوم لا ينشأ عن كثرة الخلع والتولية إلا هذا وشبهه"².

وودع المغرب القرن الثامن عشر واستقبل القرن التاسع عشر على إيقاع طاعون خطير ما بين 1798-1800، كان يودي بحياة المصابين بنسبة كبيرة وبشكل سريع. والملاحظ أن فئتي التجار والجنود كانت أكثر الفئات نقلا للوباء عبر التراب الوطني. فإذا كان الوباء السابق الذي ضرب المغرب في أربعينيات القرن الثامن عشر مرده إلى قدوم قافلة تجارية من الشرق عبر الجزائر إلى نواحي فاس، فإن تحركات السلطان المولى سليمان مع بداية القرن التاسع عشر لإخضاع بعض القواد المتمردين في زمن الوباء، قد أسهم في نقل جنوده للوباء من منطقة فاس ومكناس حيث كان ينتشر، إلى كل القبائل والمناطق التي يمر بها الجيش السلطاني. مما جعل الخسائر البشرية تزداد

1 - التمارتي، المصدر نفسه، ص. 35.

² الناصري، أحمد بن خالد (1997م): الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء: دار الكتاب، ج، 7، ص 145-146.

وتصل إلى الآلاف من الأموات. وتحدث القناصل الأجانب بطنجة عن موت ما بين سبعمائة وثمانمائة في اليوم. وأصبحت عدة قرى مهجورة حتى قال أحد الفقهاء: إن الوباء أخلى البلاد من العباد. وتحديث الروايات الأجنبية عن هلاك ما بين ثلث ونصف سكان المغرب آنذاك¹. ولم تلبث البلاد إلا قرابة عقدين من الزمان، حتى عاد الطاعون مرة أخرى للفتك بها ما بين 1818 و1820. وكان هذا الوباء مرتبطا بالطاعون الذي ضرب بعض بلدان المتوسط بصفتيه الشمالية والجنوبية خلال العقدين الأولين من القرن التاسع عشر (مصر، مالطا، والجزائر...). وخلال هذه المرحلة بدأ تدخل القناصل الأوروبيين لفرض الحجر الصحي على السفن القادمة من بلاد المغرب الكبير وأوروبا لمدة تمتد على التوالي ما بين أربعة أيام إلى يومين. واعترف السلطان المولى سليمان للقناصل الأوروبيين بخبرتهم في هذا المجال، حيث جاء في إحدى رسائله إليهم: "فأنتم تعرفون كيف تتعاملون مع أهل الوباء في بيعاتكم (كذا) ومشترياتكم وتجعلون الدراهم في الخل وتتحفظون كل التحفظ والمسلمون لا يعرفون ذلك، ولا يتحفظون مثل تحفظكم منه وذلك فيه ضرر على المسلمين وعلى قصوات النصارى الذين بطنجة"².

ويقدم لنا الدرس التاريخي في هذه الفترة بالضبط، أن التهاون في تطبيق الحجر الصحي لاعتبارات خاصة تتعلق بمراعاة المراتب الاجتماعية للناس، قد ترتبت عنه نتائج وخيمة. فبناء على الأوامر الضمنية التي تلقاها الأمناء من صاحب الجلالة السلطان"، - حسب القنصل الفرنسي - لم يتم تطبيق الحجر الصحي على مركب للحجاج نزل بطنجة سنة 1818م وكان على متته الأميران عمر وعلي إبن السلطان المولى سليمان. فترتب عن ذلك انتشار الوباء بطنجة مباشرة بعد نزولهم بها. ولم تستطع طنجة لملمة جراحها من هذا الوباء القادم من الشرق بواسطة الحجاج، حتى تسلط عليها طاعون 1819م. فذهب ضحيته حوالي خمس سكانها، ومنها انتشر الوباء إلى باقي مناطق ومدن الشمال وصولا إلى فاس ومكناس... مما أدى إلى كثرة الخسائر في صفوف الفلاحين والحرفيين والتجار، فكدت الصنائع والحرف وضائق المعاش.

خلف هذا الطاعون آثارا عميقة على نفسية الإنسان المغربي ومشاعره ومعاشه وحياته بصفة عامة. تحدث عن ذلك محمد بن حمزة المكناسي، فقال: "وأما زماننا الذي نحن فيه... (فقد) كثر فيه الفتن وقل الحياء والإيمان وساد أهل الظلم والطغيان وفشا فيه الفساد، سيما بعد الطاعون الذي عم أقصا بلاد المغرب وادناه سنة أربع عشرة من القرن المذكور (13هـ)، وبعد فناء خلق كثير بسببه من الخواص والعوام، غير أنه بقيت بقية ممن يرجى خيرهم ويؤمن شرهم لم تنعدم بالكلية وهم في أقل القليل، ثم صارت تلك البقية تضعف إلى أن عم الطاعون أيضا في المرة الثانية سنة أربع وثلاثين

¹ البزاز، محمد الأمين (1992م): تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ص 97.

² البزاز، المصدر نفسه، ص 105.

من القرن المذكور، فانقطعت تلك البقية بالكلية فعظمت الفتن وكثرت الأهوال واشتد الحال على الضعفاء والمساكين¹.

وبعد طاعون 1818-1820، استراح المغرب من الطاعون إلى بداية القرن العشرين، لكنه تعرض لويلات من الأوبئة الأخرى كالجذري، والتفويد، ثم الكوليرا التي سماها المغاربة بـ "بوكليب". ففي سنة 1834م، تجدد ظهور الكوليرا عبر موجات عالمية اكتسحت المعمور لخمس مرات خلال القرن التاسع عشر جميعها جاءت من البنغال ودلتا الغانج (الهند) حيث كان الوباء دائما متوطنا، ومنه انطلق نحو باقي العالم شرقا وغربا، وصولا إلى حوض المتوسط، فكانت الكوليرا تواصل زحفها كالسيل الجارف، محطمة في طريقها كل الحواجز. ولم تكن تسلم منها حتى أكثر البلدان تقدما. ذلك أن طبيعة المرض كانت ما تزال غامضة، ولم يبدأ التحكم فيه إلا بعد عام 1884م. وكان المغرب بحكم انفتاحه البحري، معرضا لموجات الكوليرا هاته. وهكذا تسلطت الكوليرا على المغرب خلال القرن التاسع عشر، فأصابته المدن والبادي (مكناس، فاس، وزان...) سنة 1834م، ومات بسببها خلق كثير وجم غير لا يحصى عدده إلا الملك القدير. ووصلت إلى المناطق البعيدة مثل فكيك في المغرب الشرقي. ولم تكن خطورة الكوليرا فقط في نتائجها الوخيمة، ولكن في دوراتها المتكررة المرتبطة بالموجات العالمية للكوليرا حيث عادت من جديد سنوات 1854-1855، و1859-1860، و1865، و1878، و1895-1896م. وصف المغاربة هذا الوباء وتحدثوا عن خطورته. فقال صاحب الابتسام: " هو ربح ما سمعوا به، قاتل من حينه، ويسمونه عندنا في المغرب بأسماء الكوليرة والريح الأصفر وبوقليب... إذا أصاب الرجل تغير لونه واسود جفن عينه ويجعله يقيء من أعلا ويسهل من أسفله، ومن الناس من يشتكي مع ما ذكر وجع رجليه ويموت في الحين". أما العربي المشرفي (ت 1313 هـ/1895م) الذي ألف كتاب "أقوال المطاعين في الطعن والطواعين"، فيقول عنه: "فكان موته موت بغتة وفجأة"، حيث "يرى الإنسان أخاه يمشي صحيحا فيسقط ميتا، وقل من جاوز في تلك المدة أربعة وعشرين ساعة..."².

هكذا، كانت حصيلة موجات الطاعون والكوليرا وغيرها من الأوبئة في تاريخ المغرب الحديث حصيلة مدمرة ديموغرافيا واقتصاديا واجتماعيا وحضاريا... لقد شكلت هذه الأوبئة وما ارتبط بها من مجاعات أهم التحديات التي واجهت المغرب في العصر الحديث، حيث إنها لم تسمح له بفرص مناسبة للإقلاع التنموي. فمنذ الانهيار الديموغرافي الكبير في القرن الرابع عشر الناتج عن الطاعون الأسود، توالى موجات الأوبئة والمجاعات والقحوط، مما كان يؤدي باستمرار إلى خسائر ديموغرافية وأزمات اجتماعية واقتصادية وخراب للعمران وتأخر حضاري مقارنة مع أوروبا، التي وإن كانت قد

¹ - البزاز، المصدر نفسه، ص 140.

² - البزاز، المصدر نفسه، ص 171.

تعرضت لنفس التحديات، لكنها استطاعت تعبئة طاقاتها والدفاع عن نفسها في معركة البقاء في وجه الوباء. ومن ثم أسهمت الأوبئة في فقدان المغرب القدرة على خلق شروط الإقلاع¹ كما أنها حسب المؤرخ جرمان عياش أحد الأسباب المهمة في التخلف². فما هي إذن التحديات التي تفرضها علينا اليوم أزمة كورونا كوفيد 19؟ ما القيمة المضافة التي يمكن أن يسهم بها الدرس التاريخي في مواجهة البشرية لتحديات كورونا اليوم وغدا؟

الدرس التاريخي وتحديات ما بعد كورونا:

لا شك أن جائحة كورونا كوفيد 19 تشكل أكبر تحدي للبشرية مع بداية القرن الحادي والعشرين. لقد وجدت البشرية نفسها، وهي تعيش أعلى مستوياتها في التقدم العلمي والتكنولوجي بعناوينه الكبرى من غزو الفضاء والنزول على سطح المريخ إلى الذكاء الاصطناعي والإنسان الآلي... وجدت نفسها في حرب غير متوقعة أمام عدو مجهول، وغير مرئي، يهددها في وجودها الفيزيائي، فضلا عن تقييده لحريتها على جميع المستويات، إنه فيروس كورونا. وهكذا، وجد العقل البشري نفسه مجبرا على تغيير بوصلة اهتماماته، فانكب الجميع على محاولة فهم هذه الأزمة من مختلف الزوايا والتخصصات، ولأن أصبحت الكلمة الأولى لعلماء الطب ومختبرات البيوتكنولوجيا وشركات صناعة اللقاحات، فإن الطابع المعقد والمركب لهذه الأزمة وتداعياتها الخطيرة على جميع مناحي الحياة الإنسانية الفردية والجماعية، النفسية والاقتصادية والفكرية والدينية والسياسية... كل ذلك جعل كل العلوم والمعارف مدعوة إلى الإسهام في تفكيك شفرات هذه الأزمة وتيسير السبيل أمام إنسان القرن الحادي والعشرين للخروج من دائرة العتمة والظلام إلى دائرة الضوء والنور لاستئناف مسيرته نحو المستقبل بأمن وأمان. فكيف يمكن للتاريخ والمؤرخ أن يسهم في هذه المعركة وهما يتوجهان نحو الماضي؟ ما الدروس والعبر الممكن استخلاصها من هذه الازمة ومثيلاتها في تاريخ البشرية من أجل مستقبل أفضل؟

من هنا بدأت المعركة بالنسبة لأهل التاريخ. فقد مر زمن طويل عليهم وهم يخوضون المعارك الفكرية النظرية حول قضايا مختلفة في الحقل الإبيستيمولوجي للتاريخ، حول مفهوم التاريخ، وحول نطاقه الزمني، بمعنى هل يشمل الماضي فقط، أم يمتد ليشمل الزمان بأبعاده الثلاثة: الماضي، والحاضر والمستقبل؟ كما مر عليهم زمن طويل وهو يخوضون سجالا فكريا حادا حول علمية التاريخ ووظيفته والجدوى من المعرفة التي يقدمها للمجتمع؟ وغير ذلك من القضايا والإشكالات.

¹ القدوري، عبد المجيد (2012م): المغرب وأروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي - بيروت، ص 255.

² البزاز، مصدر سابق، ص 9.

لقد اختلفت الإجابات عن هذه القضايا بين المؤرخين باختلاف توجهاتهم ومدارسهم الفكرية والمنهجية. ويبدو اليوم أن معركة كورونا، قد شكلت فرصة تاريخية لإعادة النظر في تقديم المعرفة التاريخية إلى البشرية في الزمن الراهن وهي تخوض معركتها الوجودية ضد فيروس كورونا. ولما كان السياق مطبوعا بالتحدي، فقد حمل المؤرخون المعاصرون على عاتقهم واجب الإسهام في معركة التحدي والصمود في وجه كورونا. فما هي أهم مظاهر ذلك؟

لم يكن بإمكان البشرية وهي تخوض هذه الحرب أن تتخلص من ذاكرتها التاريخية، فقد عادت إليها بواسطة المؤرخين لاستنطاق ماضيها البعيد والقريب وفحص معاركها من جديد في مواجهة الأوبئة. فكانت إعادة اكتشاف الأوبئة الكبرى في التاريخ وإعادة تقييم آثارها مقدمة للدعوة إلى إعادة النظر في التحقيق التاريخي وفي تفسير تحولات سياسية كبرى في التاريخ، بالكشف عن أثر بعض الأوبئة في سقوط إمبراطوريات كبرى في العالم القديم (سقوط الإمبراطورية الرومانية) أو في العالم الوسيط (سقوط الدولة الأموية).

وشكلت هذه المحطة فرصة مناسبة لاستجلاء الخبرة البشرية المتراكمة عبر التاريخ في التعاطي مع مثل هذه الأزمات. هكذا، فرضت ظروف الجائحة انخراط المؤرخين في إحياء التراث العلمي والطبي في الحضارات الإنسانية بصفة عامة وفي الحضارة الإسلامية بصفة خاصة. وتبين من خلال هذا التوجه البحثي أن العقل العربي والإسلامي قد سجل في مراحل ازدهاره إسهامات غنية لا تضاهي في قيمتها العلمية مقارنة مع العقل الغربي المعاصر له، في مجال علم الأوبئة بمختلف مكوناته من خلال توصيف الأوبئة وتشخيص أسبابها وسبل الوقاية منها وسبل العلاج منها... وقد قام أحد الباحثين بالكشف عن الخزان العظيم الذي تحتضنه الحضارة الإسلامية في هذا المجال فأحصى ما يقارب مائة مؤلف بالشرق والمغرب في مجال علم الأوبئة¹. ويهمنا كثيرا أن نعيد التأكيد عليه، ليس فقط اعتزازا بالماضي المجيد للحضارة الإسلامية، بل من أجل تبليغ رسالة إلى ذوي الهمم العالية من أبناء الأمة لاستئناف التألق العلمي الذي كان عليه أجدادهم، مما يؤكد تفاعل العقل العربي والإسلامي مع ظاهرة الأوبئة والطواعين وسعيه إلى الإحاطة بها من مختلف جوانبها العلمية والدينية والطبية والثقافية والاجتماعية...

إن هذا المستوى من الإنتاج العلمي العربي والإسلامي، ليعتبر أكبر دين يتحمله العقل المسلم المعاصر من أجل استئناف تألقه العلمي التاريخي خدمة للحضارة الإنسانية، في زمن كورونا وما بعده. وإنها لمسؤولية تاريخية تتحملها الأمة الإسلامية اليوم وغدا.

¹ أبطوي، محمد: مصدر سابق.

أكدت هذه الأزمة ضرورة المعرفة التاريخية بالنسبة للإنسانية، للتكيف النفسي والاجتماعي، الفردي والجماعي مع ظروف الجائحة خاصة في ظل الحجر الشامل وتقييد الحرية للإنسان المعاصر. فقدم الدرس التاريخي للبشرية الحجر الصحي باعتباره أسلوباً للوقاية من الأساليب الضرورية لمواجهة مخاطر اجتياح الوباء للبشرية محلياً وإقليمياً وعالمياً. فكثيرة هي تجارب الحجر الصحي التي أعاد الدرس التاريخي التعريف بها من خلال المصادر الغربية والإسلامية، باعتباره من الأساليب الوقائية... وبالنسبة للمجتمعات المتدينة مثل المجتمع الإسلامي، يقدم الدرس التاريخي الإسلامي بغض النظر عن النصوص الدينية المرجعية المؤطرة لمثل هذه الأحوال، نماذج من التجارب التاريخية لتدبير الشأن الديني في ظل الجوائح، وتكييف الشعائر الدينية مع ظروف الجائحة، ومن ذلك تعليق صلاة الجمعة والجماعة وتأجيل مواكب الحجاج نحو بيت الله الحرام...

في هذا الإطار، تسجل التجربة التاريخية للمغرب -حسب بعض الدارسين- تردداً كبيراً، بل تأخراً في تفهم الحجر الصحي كأسلوب لتدبير أزمات الأوبئة، سواء من طرف السلطة السياسية العليا أو من طرف النخب العالمية، في الوقت الذي شرعت الدول الأوروبية في تطبيقه منذ نهاية القرن الرابع عشر. ورغم أنها لم توحّد سياستها في هذا المجال إلا في سنة 1851م بمناسبة عقد مؤتمر دولي صحي بباريس، فقد كان لها الفضل وراء تأسيس مجالس صحية دولية بعدة بلدان إسلامية (الدولة العثمانية، ومصر)، منها المجلس الصحي الدولي الذي تأسس بالمغرب وكان يتكون من ممثلي الدول الأوروبية بطنجة، وهو الذي سعى إلى فرض آلية الحجر الصحي في الموانئ المغربية للسفن القادمة من البلدان الموبوءة، في ظل تحفظ بل ومعارضة السلطات المغربية لهذا القرار الذي لم يكن مقبولاً من طرف السلاطين لأسباب سياسية واقتصادية ودينية، حيث حاربوا هذه الممارسة إما بسبب المحسوبية أو نظراً لضغط التجار وأيضاً بسبب أن الأغلبية المهيمنة من الفقهاء كانوا يعتبرون الحجر الصحي بدعة من بدع الكفار. وهكذا تم فرض "الكورنطينة" من طرف الأوروبيين، والتي عظم نفوذها في المغرب ابتداءً من 1802م. وشكلت هذه المواضيع محور عدد من الرسائل السلطانية ومراسلات القناصل بالمغرب في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر للميلاد، خاصة في عهد سيدي محمد بن عبد الله ومولاي سليمان ومولاي عبد الرحمان بن هشام ومولاي الحسن الأول. قبل أن تقتنع السلطات المغربية بجدوى هذا القرار، فقام السلطان محمد بن عبد الرحمان، باختيار جزيرة الصويرة محجراً صحياً لـ "حجاج الموبوءين" 1283هـ/ 1856م، كما تم منع استيراد الملابس القديمة إلى الموانئ المغربية خيفة حملها لجراثيم وبائية (رسالة السلطان عبد الرحمان بن هشام 1244 هجرية/ 1828م)، كما تحفل الخزائن المغربية برسائل القناصل الأوروبيين حول علاقات دولهم بالمغرب إبان زمن الأوبئة، حيث قامت بعض الدول بقطع علاقاتها مع المغرب خلال فترة

انتشار الأوبئة، خاصة بعد تسرب وباء الطاعون من الجزائر في العام 1793م، فوق جحر صحي على القادمين من الجزائر، ثم فرضت منع التنقل عبر الحدود البرية...¹.

ونستحضر هذا السياق طبيعة المواقف من الطاعون والوقاية منه لدى النخب العالمية بالمغرب في العصر الحديث. ففي الوقت الذي سجل العقل المغربي إنتاجا علميا متميزا في مقاربة الطاعون في أواخر العصر الوسيط بالبحث في أسبابه وتشخيص مظاهره واقتراح التفسيرات والعلاجات الممكنة له، وخاصة بعد أزمة الطاعون الأسود، من خلال إنتاجات أمثال ابن الخطيب وابن أبي خاتمة وذلك بمقاربة تجمع بين المنطق الديني والمنطق العقلاني السببي؛ وبعد مرور أربعة قرون ونيف كلها مثقلة بالطواعين والأوبئة، وفي الوقت الذي خطى فيه العقل الأوربي خطوات عملاقة لمواجهة الأوبئة والطواعين، وجدنا العقل المغربي في القرن الثامن عشر والتاسع عشر غارقا في اجترار بعض الإشكالات التقليدية التي ارتبطت بتدبير الأوبئة وخاصة سياسة الاحتراز من الطاعون ومدى شرعيتها. جسد ذلك بعض كبار العلماء الذين كان لهم تأثيرهم البالغ في المجتمع أمثال الشيخ أحمد بن عجيبة صاحب الذي ألف رسالة "سلك الدرر في ذكر القضاء والقدر"، إبان طاعون 1798-1800، حيث عارض فيها دعوة بعض العلماء إلى اتخاذ الأسباب للاحتراز من الوباء، ومن ذلك غلق أبواب المدينة و الفرار من الوباء بعد مدهمته إياها، معتبرا هؤلاء ممن ضل وأضل وجعل يدافع المقادير بما يقدر من الأسباب والحيل. مدافعا عن أطروحة مفادها أن الموت والحياة بيد الله، ولا تأثير لشيء من الأسباب في الموت وغيرها بل الأمر بيد الله. مدافعا عنها بما رآه مناسبا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي فسرها وأولها بالمعنى الذي يخدم أطروحته. كما استعان بتوجيهات شيخ الزاوية الدرقاوية مولاي العربي الدرقاوي بالطهارة وقت الوباء وصلاة ركعتين. ومعلوم ان الشيخ ابن عجيبة قضى نحبه نتيجة هذا الوباء وكذلك أبنائه بمدينة تطوان. ولعل ما يخفف من وطأة هذا التفكير التواكلي السلبي على المجتمع هو وجود منهج آخر مخالف له، يتميز بالواقعية والنزوع نحو فهم أكثر رشدا للنص الديني ولتحديات الواقع. ويمكن ان نذكر من بين ممثلي هذا الاتجاه في تلك الفترة، محمد بن يحيى السوسي الذي كتب "تأليف في الطب". وتميز من خلال كتابه هذا بقدرته على التوفيق بين النقل والعقل، بين النص والتجربة، فأكد أن هذا المرض معد بالتجربة ولذلك اعتبر أن الرأي بعدم القدوم وجواز الخروج هو الموافق لقاعدة الحذر من المهلك التي نصت عليها الشريعة الإسلامية. ودعا بالمناسبة إلى اعتماد التدابير الوقائية كالعزلة والانفراد والابتعاد عن المريض، وترك الاجتماعات المعتادة كالأفراح، والاحتراز الشديد في دفن الميت المصاب بالوباء. و ذهب إلى اقتراح سبل للعلاج فقال: "علاجه الفصد والحجامة في أزل الفصل الذي ظهرت فيه علامته، واستعمال التنقية بالإسهال، وليهجر اللحم عند ظهوره، وكل ما يولد الدم كالحلويات، ويشم النارج والننع

¹ العجلوي، الموسوي (2021م): الأوبئة والدولة والمجتمع في تاريخ المغرب، مقال منشور على موقع: <https://www.policycenter.ma>

والقطران ويستعمل المبردات والترياق. وليكثر من الصدقات بغية فداء النفس وليواظب على الذكر ويتحرى في مسكنه موضعا نزها سالما من الوخم والأزبال وروائح الموتى والمرضى". وبذلك جمع بين سبل متعددة للعلاج تجمع بين التطبيب وحسن اختيار التغذية الطبيعية للجسم والتغذية الروحية ونظافة البيئة¹. هذا التقابل المنهجي في مقارنة قضايا الأوبئة، يؤكد إلى حد كبير ما ذهب إليه بعض الدارسين من الحكم باستمرار الجمود الذي طبع العقل الإسلامي في العصر في العصر الحديث، مما شكل عائقا دون التمكين للمقاربة العلمية لقضايا الأوبئة والطواعين وربما غيرها من قضايا التحديث والإصلاح.

واعتبارا للتداعيات الخطيرة للجائحة على الاقتصاد والمعيش بالنسبة للأفراد والدول، وفي ظل اجتياح الفكر الرأسمالي الليبرالي للمنظومة العالمية بعد انحصار الإيديولوجية الاشتراكية المضادة، أعادت الجائحة معززة بالدرس التاريخي النظر في الدور الوظيفي للدولة، مهما كانت طبيعة النظام الإيديولوجي الذي تنتسب إليه. فقد أصبحت الدولة مؤسسة اجتماعية راعية بالضرورة لحياة المواطنين ومعاشهم وأقواتهم، فتدخلت كل الدول في ظل هذه الازمة لضمان الغذاء والدواء لمواطنيها. الأوبئة. وهكذا، كانت الدولة في تاريخ المغرب مثالا دائما بجانب المواطن وخاصة في فترات الشدة والمحن وأصعبها فترات القحوط والمجاعات والأوبئة. وهكذا سعت الدولة دائما في تاريخ المغرب، خلال فترات الأوبئة والمجاعات والقحوط، إلى تجسيد وظيفتها الاجتماعية، بنهج سياسة التضامن والتآزر لمساعدة المحتاجين، وضمان الأمن الغذائي والاقتصادي عبر سياسة تموينية مستدامة للسوق الوطني من المواد الأساسية مستثمرة ما تزخر به بنائيتها التخزينية للحبوب كأهرية الحبوب التي شيدها السلطان المولى إسماعيل بمكناس مثلا، أو باعتماد سياسة الاستيراد المباشر أو عبر القطاع الخاص للحبوب ودعم أسعارها حفاظا على القدرة الشرائية للمواطنين، مع ما يرافق ذلك من تفعيل لجهاز الحسبة ووظائفه التقليدية في مراقبة الأسعار والجودة ومنع الاحتكار... وها هو التاريخ يعيد نفسه مرة أخرى في ظل أزمة كورونا، وتجدد الدولة ذاتها أمام امتحان صعب لتحقيق الأمن الصحي والغذائي والاستقرار والنفسي للمواطنين في القرن الحادي وعشرين.

الخاتمة:

حاولنا من خلال هذا البحث تقديم نظرة تاريخية شاملة وعامة حول أثر الأوبئة في التاريخ العالمي والإسلامي والمغربي، من خلال بعض النماذج. مع محاولة استشرافية للمستقبل. ومن خلال تلك الجولة يمكن تقديم الخلاصات الآتية:

¹ البزاز، مصدر سابق، ص402.

1- تعتبر الأوبئة والطواعين من العناصر الهيكلية والبنوية في التاريخ البشري، اكتوت بنارها البشرية في كل العصور، رغم ما حققته في العصر الحديث والمعاصر من تقدم علمي. وبالتالي فما على البشرية التي تعيش اليوم تجربة مريرة مع جائحة كورونا، إلا أن تتكبد بالجدية اللازمة وبعمق إنساني كوني على استخلاص الدروس والعبر الضرورية للاستعداد اللازم والدائم للأخطار الوبائية التي تهدد الأجيال اللاحقة في المستقبل القريب و البعيد. وإنها لمسؤولية كبيرة ينبغي أن يسهم فيها المؤرخون إلى جانب العلماء والمفكرين بالنصيب الأوفر، من أجل مستقل آمن ومطمئن للإنسانية جمعاء.

2- إذا كانت الدولة المغربية رغم محدودية مواردها وإمكاناتها قد استطاعت إلى حد اليوم، أن تتميز باعتمادها استراتيجية ناجعة وفعالة إلى حد كبير في تدبير أزمة جائحة كورونا كوفيد19، فلهذا قد يجد تفسيره في الخبرة التاريخية للمخزن المغربي / الدولة المغربية في التعامل مع الجوائح والأوبئة عبر التاريخ على المدى البعيد، من خلال منظومة من المبادرات الاستباقية المبكرة إلى تنفيذ الحجر الصحي الشامل الداخلي والخارجي عبر إغلاق الحدود، والإجراءات الاجتماعية والاقتصادية باعتماد المبادرات التضامنية لمساعدة الفقراء والمحتاجين وكل المتضررين من الجائحة، و اعتماد حملات التلقيح المبكر للمواطنين رغم صعوبة الحصول على اللقاح في السوق الدولي... مما يؤثر على تدبير ناجح لأزمة كورونا من طرف الدولة المغربية على جميع المستويات.

3- كشفت جائحة كورونا عن استمرار الكثير من مظاهر الضعف والهشاشة البنوية في بنية الدولة والمجتمع بالمغرب، مما يتطلب جهودا كبيرة لمعالجة كل الاختلالات التنموية من أجل مستقبل آمن ومطمئن للأجيال القادمة في المستقبل القريب والبعيد. وفي مقدمة الأولويات ضرورة النهوض بقطاعات البحث العلمي والصحة والتعليم والأمن الغذائي.

4- لا شك أن أزمة جائحة كورونا قد فرضت جملة من التحديات الكبرى على الإنسانية. فعلى الرغم من اختلاف المرجعيات والسياقات الحضارية ومستويات النمو للدول، ورغم المنجز العلمي الهائل للإنسان المعاصر، وجدت الإنسانية نفسها في سفينة واحدة مهددة بالغرق أمام خطر عدو غير مرئي. مما يفرض ضرورة رعاية المشترك الإنساني وتعزيز دوره في خدمة الإنسانية ومجابهة مثل هذه الأزمات.

5- ينبعث الأمل، من جحيم كورونا عبر العالم ، حيث أثبتت الجائحة قدرة الإنسان على مواجهة التحدي وتحقيق مستوى معين من النجاح في مجابهة الجائحة عبر الاستجابة العلمية في ظرف

زمني قياسي، من خلال ابتكار مجموعة من اللقاحات، التي فتحت باب الأمل والتفاؤل للإنسانية المعاصرة في إمكانية الخروج من جحيم هذه الجائحة.

6- للمعرفة التاريخية أثر كبير في تنوير العقل البشري بالخبرات والتجارب التي راكمتها البشرية باتجاهاتها الحضارية المختلفة عبر التاريخ في مجابهة أزمات الأوبئة والجوائح، وتشكيل الوعي التاريخي الكفيل ببتأمين الرصيد الحضاري الإنساني الكوني وتعزيز الخبرة البشرية وتجاوز الأخطاء والتعثرات والاختلالات، في سبيل حماية مستقبل الأمن الصحي للإنسانية ككل.

قائمة المصادر والمراجع:

المراجع العربية:

- أبطوي، محمد، (2020م): دراسة الوباء وسبل التحرز منه: الأوبئة في الطب العربي وفي التاريخ الثقافي والاجتماعي، قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- ابن الأثير الجزري، عز الدين (1997م): الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد السلام تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ج2.
- ابن جرير الطبري، محمد: تاريخ الرسل والملوك، بيروت، دار التراث، ج4.
- ابن خلدون، عبد الرحمان (2014م)، المقدمة، تحقيق: عبد الواحد وافي، ط7، مصر: دار النهضة.
- ابن الخطيب، لسان الدين (2015م): مقنعة السائل عن المرض الهائل: تقديم وتحقيق: حياة قارة، الرباط: دار الأمان.
- أكميز، عبد الواحد (2020م): الجوائح وجدلية الدولة والحضارة، ضمن كتاب: أي دور للمؤرخ في فهم أزمة كورونا، الرباط: مركز تكامل للدراسات والأبحاث.
- بشارة، عزمي (2020م): جبر الخواطر في زمن المخاطر: الناس والوباء، قطر، سلسلة مقالات من منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، انظر الرابط التالي: dohainstitute.org
- البزاز، محمد الأمين (1992م): تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط: الدار البيضاء، المغرب، مطبعة النجاح الجديدة.

- بن منصور، هاجر (2021م): الطاعون الأسود من "آسيا إلى الغرب الإسلامي"، ضمن كتاب: الأوبئة عبر التاريخ، سلسلة المؤتمر الافتراضي الدولي الأول للعلوم الإنسانية والاجتماعية رؤية جديدة بعد الجائحة، الجزائر: دار خيال للنشر والترجمة.
- التمنارتي، عبد الرحمن (2007م): الفوائد الجمّة في إسناد علوم الأمة، تحقيق: اليزيد الراضي، بيروت: دار الكتب العلمية.
- الخطابي، محمد العربي (1988م): الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- الناصري، أحمد بن خالد (1997م): الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء: دار الكتاب، ج7.
- مرقطن، محمد (2022): الأوبئة والجوائح في الشرق الأدنى القديم منذ أقدم العصور حتى طاعون عمواس دراسة في تأثيراتها في العمران البشري، الدوحة: مجلة أسطور العدد 15، ص72-95.
- الوفرائي، محمد الصغير (1998م): نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشادلي، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
- روزنبرجر، برنارد، وتريكي، حميد (2010م): المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر، ترجمة عبد الرحيم حزل، ط2، الرباط، دار الأمان.
- العدوي، أحمد (2018م): الطاعون في العصر الأموي صفحات مجهولة من تاريخ الخلافة الأموية، قطر: منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- العسقلاني، ابن حجر: بذل الماعون في فضل الطاعون، تحقيق: أحمد عصام عبد القادر الكاتب، الرياض: دار العاصمة.
- القدوري، عبد المجيد (2012م): المغرب وأروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، بيروت: المركز الثقافي العربي.
- زبير، لوبني (2020): تاريخ المغرب بين الجوع والموت، مجلة رباط الكتب، مجلة إلكترونية متخصصة في الكتاب وقضاياها، المغرب. <https://ribatalkoutoub.com/>.
- العجلوي، الموساوي: الأوبئة والدولة والمجتمع في تاريخ المغرب، منشور ضمن موقع: <https://www.policycenter.ma>، تاريخ الاطلاع: 2021/4/27.

- الجيلاني، عبد اللطيف: الحَجْرُ الصَّحِّي وأهميته في التَّحَرُّزِ مِنَ الْوَبَاءِ، موقع <https://www.arrabita.ma> تاريخ الاطلاع: 19 أبريل 2021 م.
- بوتشيش القادري، إبراهيم: هل يقرب وباء كورونا نهاية العولمة وبداية تحقيب جديد للتاريخ؟ منشور بموقع بيت الحكمة العراقي، انظر الرابط التالي: http://www.baytalhikma.iq/News_Details.php?ID=1223 بتاريخ 28-2020/4
- ملين، نبيل: إدارة الأوبئة في المغرب عبر التاريخ ومنظور الفقهاء بين المنطق والغيبيات، موقع دنا بريس، بتاريخ 2020/4/09.

المراجع الأجنبية:

- Bernard Rosenberger et Hamid Triki: Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles, Hespéris-Tamuda, vol. XIV, 1973, pp. 109-175 ; vol. XV, 1974.
- S Sabbatani 1, S Fiorino: The Antonine Plague and the decline of the Roman Empire. <https://pubmed.ncbi.nlm.nih.gov.2020/5/21> .